***حوليات جامعة بشار***
***Annales de l'Université de Bechar***
***N° 11, 2011, 11*** العدد
ISSN : 1112-6604

# الواقع وتجلياته في البنية السردية لرواية الحبيب السايح
# مذنبون"لون دمهم في كفي "

د/ كواري مبروك
جامعة بشار
kaouarimebrouk@yahoo.fr

**الملخص:**

هذه المقاربة بحث يحاول الوقوف على تقنية السرد في علاقته بالواقع الذي هندس بنية النص الروائي (مذنبون لون دمهم في كفي) للحبيب السائح الذي يجسد مرحلة تاريخية من تاريخ الجزائر المعاصرة و يكشف عن المسكوت عنه أنها رواية تدين المأساة الوطنية...

**Résumé**:

Cette approche et une recherche qui aborde la relation entre la technique narrative et la réalité**;** la base de l'écriture du roman "coupables" la couleur de leur sangs sur mes mains**:** " de l'auteur Habib SAYEH. ce texte qui rayonne une période de l'histoire d'Algérie pour repérer le non dit ;Et découvrir les frontières officielles de l'état qui les a altéré par le système narratif qui propage les violences d'une décennie noir ,car ce roman et un acte dénoncent la tragédie sanglotant …

**الكلمات المفتاحية : الواقع ، تقنية السرد ، المأساة الوطنية، بنية النص الروائي، المسكوت عنه.**

مذنبون" لون دمهم في كفي" ..... القتلة والمقتولون مواطنون مذنبون ...لا تنشأ الكتابة إلا داخل المأساة ، هي قدرها منذ الأبد . الأدب مأساة أو لا يكون هكذا حدّث المسعدي . لا توجد أمة عبر التاريخ من غير قصة . والقصة نظام لغوي ، يعكس من خلفه نظام ثقافة الأمة وحضارتها التي تبلورت في أحضانها ، وساهمت في انبثاقها في هذا الوجود.وهي تعبير لغوي فني معماريته تخبر عن معمارية العقل الكامن فيه وعن رهافة الذوق ودقته .كما تعكس رهافة

ذوق الأمة التي ينتمي إليها الفنان ،وتفصح عن أسرار الكاتب ، وألق المجتمع الذي يكتب له[1] .إن كل عمل أدبي عظيم ينطوي على رؤية للعالم تنظم عالم العمل الأدبي ... ولذلك يجب على المرء أن يكشف عن القيم المرفوضة التي تقمعها الرؤية التي تصنع وحدة العمل الأدبي فيكشف عن التضحيات التي يعانيها البشر في سبيل رفض هذه القيم وقمعها[2]

الكتابة الروائية حقل معرفي تتداخل فيه الأجناس الأدبية، وهي النوع الأدبي الذي يمتح مضامينه من جميع المعالم المعرفية . هذا ما يجعل الرواية متفردة متميزة في بنبتها الفنية والدلالية ووقعها الجمالي ...الكتابة الروائية مغامرة كثيرة المزالق والانعراجات. هي التحرر من حدود الواقع [3] هي الكلام المرصوص على صفحات بيضاء ، يشي ، يلمع بالحقيقة المخيفة التي يتحاشاها الجميع لأنهم يخافون أن تأخذ منهم ما ليس لهم ، أو تظهر لهم ما يرعبهم فتجعلهم يتوارون خلف الكلام ، لعله يشفع لهم ذات يوم خطيئتهم ، ويمسح مسخ الكلمات , لأن الحقيقة مرعبة مدمرة ، عابثة ، تقلب الموازين ، تكشف المستور الذي بنيت عليه الأباطيل ... الكتابة الروائية إذاً هي ( نوع من الرؤية إلى الحياة، والتعبير عن هذه الرؤية )[4]. و النص الفني هو الذي يُتلقى، ويُفهم بطريقة تختلف عن تلك التي أرادها الكاتب بوعي[5]... لأن القارئ ينطلق في قراءته للنص من اهتمامات تخصه ، فهو بذلك يسعى إلى إثبات غرض ما[6] ..

جسدت رواية مذنبون أحداث مرحلة متفردة في تاريخ الجزائر المعاصرة فكشفت الغطاء عن المسكوت عنه في جدلية الحكم ، ومعضلة السلطة في علاقة الحاكم بالمحكوم 'إشكالية الحاكمية ' . فاقتحمت حدود هذا السياج وأبرزت عمق الخلاف القائم بين شرائح المجتمع الجزائري برؤية متميزة في معالجة هذا الواقع المأزوم المصطبغ بالدم خلال العقدين الماضيين، 2002,1992 بعد إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية سنة 1992ودخول الجزائر على إثرها في دوامة العنف الدموي بين دعاة الحق الديمقراطي ...*الرافضون للنتائج والرافضون لرفض النتائج* ... هذا الوضع الذي دمر البلاد والعباد فلم يسلم من ويلاته أحد في جزائر الاستقلال والحرية . كما سجلت بشفافية تضارب المواقف عبر هذه الفترة الزمنية من الوئام إلى المصالحة إلى العفو الشامل ... موازنة الخيال الزائغ بثقل الحقيقة[7] فهي بحق شهادة على مأساة الجزائريين .. أين تغدو جميع الأشياء أقل حقيقة ، وينتقل الإنسان من لا حقيقة إلى لا حقيقة[8]...؟

الكتابة بوح وكتمان

---

[1] رولان بارت :مدخل إلى التحليل البنيوي من الصفحة 5 إلى12

[2] -جابر عصفور : نظريات معاصرة ص:165 ط.1.دار المدى. ط.1.دار المدى 1998(مقولة لوسيان غولدمان)

[3] -مجموعة من الكتاب الأدب والأنواع الأدبية .تعريب طاهر حجار ص.51 ط.1. دار طلاس سوريا

[4] -م.س: ص:101

[5] -م.س ص:24

[6] - عبد الفتاح كليطو :المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية :ص19

[7] -موسوعة المصطلح النقدي المجلد الثالث تعريب عبد الواحد لؤلؤة .ص 35 بيروت ط1 ..1983

[8] - م . س ص23

النص السردي الماثل أمامنا، نص فاضح، كاشف، وواش، يبرز مسار السائح الحبيب السردي ، ومنهجيته في الكتابة، إن الحبيب من خلال روايته ( مذنبون، لون دمهم في كفي) يمارس تأثيره ، وسحره فينا ، فيشدنا إلى تتبع أحداث الرواية شداً ، يجعلنا نجوب تضاريسها بحثا عن فنية الكتابة ، وواقعيتها ، وبحثا عن تحديد العوالم التي يريد أن ينقلها إلينا كمتلقين.. إن الكتابة عند الحبيب السائح تصبح معارضة لهذا المجتمع، وفضحا لتناقضاته الكثيرة، بل هي أبعد من ذلك، حيث تتحول الكتابة إلى استلهام لكل ما يرى، ويسمع ويقرأ، ليحوله إلى كتابة ذات دلالة كبيرة. بل هي أبعد، وإلى معاني فنية، وجمالية.

علاقة النص الروائي بالواقع علاقة متداخلة، لأن في الرواية كل شيء حقيقي وكل شيء وهمي. الحدود الفاصلة بين الحقيقة والوهم تتلاشى، وتصير خيطا لا مرئيا شفافا، لا يمكن الفصل بينهما (الحقيقة والوهم). تجعل الناص يحلق في مملكة الدلالة دون رقيب. والمقصود من هذا التحليق في لغة الأدب لغة الخيال اللغة الشعرية التي تتحقق كلما ابتعدت الكتابة الروائية عن لغة المعيار، ولامست لغة الوهم واللامنطق، يكون الإبداع ويتأكد التواصل، ويتم التأثير..و ( لا يتم الإيصال على المستوى الدلالي ، إلا إذا كان المرسل والمرسل إليه متفقين على شفرة واحدة بها يركبان الرسالة ، و بها يفككانها )[9] الواقع لا يكتفي بطرح تيمات ذات صيغة اجتماعية تتخلل معنى النص، إنما يتعدى ذلك ليشمل كل مشكلات النص الروائي، ابتداء من أول كلمة يخطها المبدع، إلى آخر كلمة.. الواقع ماثل في عناصر الخطاب الروائي، نتلمسه في عتبات النص، كما يواجهنا في بنية النص الداخلية..

البناء الروائي والتقنية الواقعية

لوكا تش يربط العمل الأدبي بالمحيط الاجتماعي الذي أنتجه وشكل مادته وبناءه الفني ، وهذا المنحى جسدته الرواية بكل وضوح ، إن في بناء الأحداث أو في التشكيل الفني أو في الوقع الجمالي للنص الروائي "مذنبون ... لون دمهم في كفي" ؛ حيث تنشأ مشابهة بين العمل الروائي ، والواقع الذي أسهم في تشكيله . وتتجسد هذه المشابهة مع الواقع في النسيج الروائي بالراهن الاجتماعي في الكون الروائي هو أساس الامتلاك المعرفي الذي يعرضه الروائي. أما الصوغ الأدبي من رموز و استعارات ، ونسيج وعلاقات شخصيات، وطرائق سرد، و بناء روائي فهو الامتلاك الجمالي لهذه المعرفة .

الرواية: الواقع ـ امتلاك معرفي ـ امتلاك جمالي

[9] -منذر عياشي : الأسلوبية وتحليل الخطاب :ص110.109 مركز الإنماء الحضاري ط1..2002

القارئ

فالقارئ في تناوله للعمل الروائي فإن عينه دائماً على الواقع[10]

الواقع العياني :

اضطراب فوضى تدمير هدم ، دماء تسيل أشلا ممزقة رعب... كل ما يدعو للهلع والجزع والانتقام. كثافة الدمار الشامل للبنى التحتية وللإنسان

الواقع الروائي

نفس المواصفات في الرواية، الاضطراب في سرد المشاهد الدموية المرعبة ، والخلط في عرض الوقائع ، سرعة الانتقال من حدث إلى آخر عن طريق التداعي والتذكر ؛ أسلوب الاسترجاع ؛ حيث نشاهد في الجزء الواحد من الرواية كثافة في عرض مادة النص الروائي . يعرض السارد عدة مواقف عن طريق اللمحة ثم يعود ليكمل الوصف، ثم ينتقل إلى عنصر آخر . وهذا ما جعل الناص يخضع لدوافع الواقع في تشكيل عمله الروائي. و نلمس هذه الخاصية في عملية الانتقام ،و في تصوير مشاهد الموت وبشاعتها. وفي تدمير مكونات الشخصيات الفاعلة رشيد ،فلة، لحول ، بوركبة،نجاة، الضابط لخضر،و أحمد في دفعهم إلى اليأس ورفض الآخر ، وعدم التسامح . وهذه معضلة الرواية ، ومعضلة الواقع الذي أفرزها. الكل متواطئ والكل ضحية يريد الانتقام ، الر فض المطلق للآخر .لا تسامح ولا تصالح ولا عفو ... من المستفيد ؟في التشهير وفتح جرح الجزائر النازف ؟؟

التماثل الأيقوني للشخوص:

لقد انتقى السارد أسماء شخوص الرواية بدقة وعناية ، فكل اسم يوحي ويكشف تركيبة البنية نفسية والفكرية صاحبه . وكل الأسماء تماثل ما هو موجود في الواقع الجزائري . فلا تكاد تقف على اسم يعود بك إلى بيئة غير الجزائر .

فمسعود ..لمنور..ميمون ..إسماعيل ..محمد الشاوي ..رشيد ..أحمد ..بوعلام ..لخضر حسن.. إبراهيم.. .عليان ..مراد ..ومبروكة حليمة ..فضيلة ..زهراء ..نجاة ..ولحول بوركبة .. بوردينة .فلة كلابو .....فهذه الشخوص تحيل على الواقع وتخالفه في كونها شخوص ورقية، أفعالها فيها مبالغة الخيال وزيغه، وواقعية الحدث وشخوصه ...

[10] - كامل الخطيب : الرواية والواقع :ص: 14

لحول : إن هذه الصفة الناتجة عن عيب خلقي لحقت بصاحبها ووسمت فكره بالحول ، إذ هو يمثل الصوت المغرد خارج السرب ، الذي تنكر للوطن ، ولتاريخه .وذهب مع المتطرفين ،يعمل على تدمير البلاد والعباد..

رشيد : اسم دال على الوفاء ، والرشد في التفكير ، ضحية تفكير لحول وأنصاره ، فهو يمثل الفئة التي دفعت ثمن أخطاء الساسة . ويذهب رشده ويعوي صوت الوحش في داخله فيحجب عنه الرؤيا ، وينساق وراء صوت الرافضة الذين يبحثون على الانتقام ...

بوركبة صوت التاريخ الذي يضيق على المتنفذين في السلطة ويكشف زيغهم وزيغ الخارجين المتطرفين فهو لا يرى فيهم أخطاء الساسة والحكام ..

هذه الفئات هي أيقونات لما في واقع الجزائر الحبيبة تتقاسمها الرغبات والنزوات وكل يدعي الأحقية لها وكأنها بلاد بلا أهل ...حين( يتحول شعب بأكمله إلى الصعلكة... و تحول الدولة إلى مسخرة )[11] كأننا وجدنا لنكون هذا الإنسان اللاتاريخي الضال بحثاً عن أناه[12]

التطابق الإشاري ورمزية الأحداث :

النص الروائي له خصائصه، ومقوماته التي تميزه ، وتجعله مستقلاً دون أن يكون عملاً معزولاً

عن غيره من الأنظمة الثقافية الأخرى ، التي تشكل البنية السوسيوثقافية للأُمة . فهو يتفاعل معها مخضعاً ما يأخذه لقوانينه الخاصة ،ويعيد صياغتها بتقنية لها وقعها الفني في بناء النص ، ومفعولها السحري الجمالي في المتلقي وأثرها المعرفي في الأنظمة الثقافية الأخرى[13] .

كل وقائع الرواية هي إشارات رامزة لما يقع، ووقع في الجزائر . من منظور روائي يحاول الكشف عن ملابسات الواقع ، وكيف وقع ما وقع ؟ ولماذا وقع ؟وهي في المجال تحاول كشف المستور ،وهتك الحجب،وكتابة المسكوت عنه في فترة دامية من تاريخ الجزائر المستقلة بجرأة معرفية، وواقعية نصية فنية

إن المشاهد الدموية المرعبة المدمرة المعروضة في النص الروائي تحيل القارئ على الواقع ، فتتداح في مخيلة الصور المرعبة التي تلقاها مباشرة وصدمته ، أو نُقلت له عبر وسائل التواصل . فيكتشف هول ما وقع على صفحات كتاب ويحدث التصادم بين المخزون في الذاكرة ، والمشهد المعروض في النص فيحدث التفاعل الوجداني، حين يجول

[11] - الرواية ص20
[12] - الرواية ص256
[13] - فاطمة ديلمي : بنى النص ووظائفه ص.11. دار سحر 2005 سوريا

في ذاكرته يستنطق المشاهد المرعبة للدمار...أين اختلطت الأشلاء ، وسال الدم غزيراً . أين ذبح الطفل الرضيع ، ونكل بالشيخ الهرم ، وانتهكت حرمات النساء ... ما أبشع ما وقع ..

هذه البشاعة ، تضارعها بشاعة السرد الروائي في "مذنبون لون دمهم في كفي" فهي مأساة لغوية ، أين استطاع السارد تسجيل هذه الظاهرة بكل عنفها وقسوتها وبشاعتها، بعنف وقسوة وتحد. ليقول كلمة كان هو قائلها (العفو ...يعني أكل لحم الجيفة ولحم الأموات... ليس في الدنيا شيطان أكبر من رجل السياسة[14].... يجب أن تتوقف الحماقة[15] )

1— مأساة الحقد و الانتقام والرفض والقصاص

أ- الثأر والقصاص:

ب مشهد مقتل لحول في بيت أمه فلة نقف على عنصر واحد نبين من خلاله شدة القسوة التي تتحكم في سلوك أبطال النص الروائي .. فبعد تنفيذ القتل ليلاً "أخذتها بخطفة إلي وطوقتها بذراعي ّ وخرجت بها إلى الحوش تحت السيل فطرحتها أرضاً وضغطتها تحتي : اغتسلي من ذنبه من نجاستك .اغتسلي ...ورحت أفرك خديها بماء المطر مقطعاً كلماتي الساخنة : توضئي . تطهري من دمه "[16]

ت مشهد الحقد مصرع الجنود:

( لم نقف على فظاعة المشهد إلا بعد أن وصول المدد . كانوا خمسة عشرة عراة مذبوحين وأشياؤهم محشوة في أفواههم.سائق الشاحنة الثانية كان متفحماً )[17]

ث مشهد التحدي مقتل الإمام إسماعيل

ما كدنا نقوم من سجود الركعة الأولى حتى شق صوت قاسٍ خشوع الصلاة آمراً بالتزام الأماكن . تلته زخة رشاش في المصلى رجرجت الجدران وأرعدت المفاصل وأفزعت القلوب . فشخصت العيون إلى المحراب حيث وُلي إسماعيل عن القبلة لا يأتي حركة بين يدي من طوقه من الخلف شالاً ذراعيْه ليخلع من كان ملثماً عمامته ثم من شعر رأسه السود جذب إلى الخلف بيسراه وباليد اليمنى حز بخنجر ميداني إلى غياب النصل في النحر وأرخياه . فدار متهاوياً في خضة واحدة شطر القبلة ؛ كأنما ليكمل بقية الصلاة )[18]

ج -مشهد الرفض ورد الفعل مقتل علي وجماعته

[14] - الرواية ص:38
[15] - م.س :56
[16] - م.س: 66
[17] - م س ص:140
[18] - الرواية 219

(خويا رشيد لما تعرفت على علي ا كان زميلي في الغرفة بالحي الجامعي . أشعر بالغثيان ، خويا رشيد لصورة موته الفظيعة ا كانت عيارات الرشاش الثقيل هرأت صدره . وكان اثنان من آخران بلا وجهين تقريباً بفعل قوة الرصاصات القاتلة . كان باللباس الأفغاني وبشعر رأسه الطويل المضفور في جديلتين يثير الرعب النائم )[19]

فأنت تلاحظ معي أن هذه الأمثلة تؤكد درامية الحدث وتكشف جانب من مأساة الجزائر ... وأن النص الروائي ما هو إلا محاولة أولى للوقوف على أسرار هذه المأساة ، وإن كان الحبيب لم يلامس بعمق أسباب الظاهرة اكتفى بالرصد الخارجي للأحداث ولتركيبة الشخوص النفسية والفكرية وكان أميناً في ذلك..

[19] - الرواية :ص271